كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس

الموسم الجامعي: 2021/2020
وحدة الميتافيزيقا
الفصل الثاني
أستاذ الوحدة: عبد الرحيم برواكي

- ✓ **محاور الوحدة:**

تقديم عام للوحدة.

المحور الأول: الميتافيزيقا، دينامية المفهوم وموضوعاته الكبرى.

المحور الثاني: الميتافيزيقا وتأصيلها، وقفة مع التأملات الميتافيزيقية الديكارتية.

خلاصة عامة

- ✓ **المراجع المعتمدة:**

المرجع الأساسي:

- ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة وتقديم وتعليق عثمان أمين، المركز القومي للترجمة، 2009.

المرجع الثانوي:

- إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقا، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.

- ✓ **تقديم عام للوحدة**

إن الميتافيزيقا مصطلح أستعمل في البداية من قبل الفلاسفة في العصر الهلنستي ليشيروا به لمجموعة من النصوص الغير معنونة لأرسطو طاليس، وبالرغم من أن أرسطو نفسه لم يستخدم هذا المصطلح في حياته، بل أطلق هذا الاسم "ميتافيزيقا" تلميذه

أندرونيقوس الرودسي Andronicus of Rhodes وذلك عند تصنيفه وترتيبه لمؤلفات أرسطو في القرن الأول قبل الميلاد، إذ جاء ترتيب هذه النصوص بعد البحوث الطبيعية لأرسطو "الفيزيقا "فسماها ميتافيزيقا. وبذلك تكون قد جاءت هذه التسمية مصادفة من حيث ترتيب الأبحاث والنصوص الأرسطية وليس من حيث مضمون ما تحتوي عليه هذه الأبحاث والنصوص من موضوعات. ومع تطور هذا المصطلح "*ميتافيزيقا* "وبمرور الوقت أخذه فلاسفة العصور الوسطى وتداولوه فيما بينهم ليشيروا بكلمة "ميتافيزيقا" إلى تلك الموضوعات التي ناقشها أرسطو في مجال وراء الطبيعة والإدراك الفوق الحسي، وبذلك أصبح هذا المصطلح ميتافيزيقا يعبر عن مضمون الموضوعات التي يقوم بدراستها وهي البحث في ما بعد الطبيعة وفيما وراء الظواهر الحسية.

أما أرسطو فكان يسمي تلك الموضوعات قبل وفاته بأسماء أخرى مثل: "الفلسفة الأولى" وذلك تمييزاً لها عن العلم الطبيعي والذي كان يعتبره "*الفلسفة الثانية*"، أو كان يطلق عليها أيضاً أسم "الحكمة" لأنها كانت تبحث في ماهيات الأشياء أو العلل الأولى، أو "علم اللاهوت" أي -العلم الإلهي – ذلك أن الله اعتبر من أهم مباحثها باعتباره الموجود الأول وأساس الوجود، أو العلة الأولى للوجود ولذاته Causa Suis، والميتافيزيقا كعلم له طبيعة مميزة عن باقي العلوم ، إذ يقوم بمحاولة إيجاد نوع من الفهم للطبيعة الحقيقية الأولية (السبب الأول "الماهية أو كينونة الوجود أو العالم)، بصرف النظر عما إذا كانت هذه الطبيعة مرئية أو غير مرئية.

وتعلمنا الميتافيزيقا أننا نستطيع بالتفكير الفلسفي العميق والتأملي والاستنتاج العقلي أن نستخرج الإجابات على كل الأسئلة التي تحيرنا، ونكون أساس نقتنع به لتفسير طبيعة جميع الأشياء لنحصل على سلام العقل والنفس. وبالرغم من دعوة الميتافيزيقا هنا للتفكير الفلسفي والتأملي وإعمال العقل إلا أنها تدخل في نطاق "ماهيات الأشياء والكينونة"، وفي رأي بعض العلماء أن العقل غير مصمم للتعامل مع مثل هذه الأمور، فلا يمكن أن نجزم مهما بلغ فكرنا واستنتاجاتنا لمعرفتنا لماهية شيء دون وجود إثبات علمي له، وكما يقول علماء الفيزياء، فالاختبار التجريبي والصحة المنطقية هي الأهم إذا كنت تريد الحصول على تفسير صحيح للعالم والوجود، لذا فهم لا يعترفون بالميتافيزيقا إذ يعتبرونها استنتاجات لم تثبت صحتها ولا تقبل البرهنة بالقوانين والمعادلات العلمية، ويرون أنه من الخطأ أن نبني

حياتنا على استنتاجات قد تكون غير صحيحة حتى لو كانت تؤمن لنا الراحة وسلام العقل والنفس.

إلا أن نيوتن ورغم ذلك فقد تأثر كثيراً بالفلسفة الميتافيزيقية وكان بحثه في الأفكار الفلسفية للكيمياء القديمة عاملا مساعدا في اكتمال نظرية الجاذبية، وكان له رأى مخالف للعلماء الذين رفضوا الميتافيزيقا من خلال جملته الشهيرة "أيتها الفيزياء احذري من الميتافيزيقا" ومعنى هذا أنه قد تأتي الميتافيزيقا بظواهر مثبتة ولا تستطيع قوانين الفيزياء تفسيرها أو وضع المعادلات المنطقية لها، بل قد يؤدي إثبات وجود هذه الظواهر إلي تفنيد بعض النظريات والقوانين الفيزيائية أيضاً.

كما لا يفوتنا ذكر رأى آينشتاين وبالرغم من اعتناقه للفكر المادي والعلمي إلا أنه كان من أشد المعجبين بالفلسفة وكان يمدح الأفكار الفلسفية، وأكد أنه لا وجود للتعارض بين الفيزياء والميتافيزيقا، فلقد اقترنت اكتشافات آينشتاين الكبرى في الفيزياء بعودته الى الكشوفات الفلسفية القديمة، وهو القائل "إذا اعتبرنا الفلسفة بحثا عن المعرفة العامة و الأكثر شمولية فإنه ينبغي اذن أن ننظر اليها بشكل بديهي على أنها أم لكل تساؤل علمي". وكثيراً ما يظن الناس خطأً بأن الميتافيزيقا "ديانة" كونها تتكلم في "الغيبيات" وتدور أسئلتها في معظمها نحو الروحانيات، والمقصود بالغيبيات هنا ليس "الغيب الديني" الذي يقتصر على علم الله، بل المقصود بالعلم الغيبي أي العلم ذو الطبيعة "الخفية" أو "الكامنة"، وهو ذلك العلم الذي لم تكتشف قوانينه أو معادلاته بشكل كامل، لذا يطلق عليه علم "غيبي" أي أنه لازال في رحم الغيب.

لهذا يمكن القول أن الميتافيزيقا ليست بديانة بل هي فكر فلسفي وتأملي، وتبحث بطريقة عقلية فضولية لمعرفة الحقيقة والوصول إلى ماهية وجوهر الأشياء، وعلى الرغم من أن الميتافيزيقا تثبت قدرتها على امتلاك بعض الحقائق؛ إذ عجزت النظريات الفيزيائية عن الوصول إليها؛ فهي لازال تحاول تسد الفراغات التي أن نصادفها عند التفكير في الوجود والموجودات؛ ويبحث عن إجابات لفهم طبيعة وماهية الأشياء، ليشبع نهم العقل الكبير في المعرفة. فإذا كان الامر كذلك، هل يمكن أن نتحدث عن تعريف جامع مانع للميتافيزيقا؟

ولماذا رفض بعض الفلاسفة الميتافيزيقا؟ ماهي الموضوعات التي تشتغل عليها؟ وإلى أي حد يمكن أن نقول أن لكل فيلسوف مبادئه وأصوله في بناء نسقه الميتافزيقي؟

✓ المحور الأول: الميتافيزيقا، دينامية المفهوم وموضوعاته الكبرى.

لا شك أن الدراسات الكرونولوجية للتاريخ البشري، قدمت مواقف مهمة تحيل إلى أن الإنسان منذ أن وجد وهو يجوب الشعائر الميتافيزيقية، ويتخبط في الأسئلة التي تتجاوز ما هو فيزيائي مادي محاولا اقتحام أغوار المواضيع المتعالية على الطبيعة. إننا لا يمكن إنكار طبيعتنا الإنسانية التي تدفعنا للغوص في مثل هكذا موضوعات التي تخص الذات الإلهية والنفس البشرية، كون أن الدافع إلى الخوض فيها موجود في قلب الطبيعة البشرية نفسها، متمثلا في تلك الرغبة الجامحة في فهم الواقع الحقيقي فهما شاملا على حد تعبير برادلي، فقد تخبطنا في الأنساق الميتافيزيقية منذ أن وجدت أولى الحضارات الإنسانية على هذه الأرض، ومنذ الإرهاصات والبواكر الأولى لفجر التاريخ، إلا أن هذه الأنساق والمواضيع الميتافيزيقية كانت تتأسس على مشاعر الخوف والرهبة وتتغدى من الأسطورة والخرافة، مما يعني أنه تم تناول الأنساق والمواضيع الروحانية والمتعالية على الطبيعة بطابع خرافي، أسطوري خيالي، بعيدا عن ما هو عقلي موضوعي، ولم يكن يشكل استثناء لهذه الأنساق إلا بعض الحدوس التي نجدها هنا وهناك عند ثلة من الفلاسفة في العالم الهليني

وعليه وجب تأصيل وتحديد تخبطات الإنسان داخل الأنساق الميتافيزيقية، عبر العودة إلى أولى الحضارات الإنسانية، كالحضارات الشرقية القديمة (الحضارة المصرية -الحضارة الهندية والصينية) حيث أن الإنسان الشرقي كان لصيقا بالخرافة ودائما ما كان يرجع أصل كل شيء إلى آلهة متعددة، مما يتضح على أن الحضارات الشرقية القديمة قد مارست الفكر الميتافيزيقي وتساءلت عن مختلف المواضيع الميتافيزيقية الكبيرة.

مع مجيء الحضارة اليونانية عرفت الميتافيزيقا نوعا من الموضوعية، وأضحت ذات قيمة كبيرة، خصوصا مع الفيلسوف اليوناني أرسطو الذي خصص كتاب بأكمله يتكون من أربعة عشر مقالا يتحدث فيه عن الميتافيزيقا، رغم أنه لم يكن يحمل هذا اللفظ، بل كان يحمل لفظ "الفلسفة الأولى"، وقد اعتبر أرسطو أن الفلسفة الأولى هي علم العلل الأولى، وهي

البحث في الوجود بما هو موجود. لقد ظهرت الكلمة في العصر الهيلنستي مع أندرونيقوس الرودوسي في 60 ق.م كما قلنا في التقديم لهذه الوحدة، ويعتبر أندرونيقوس الرئيس الحادي عشر للمدرسة المشائية حيث صنف كتب أرسطو ورتبها وشرحها، وأثناء الترتيب وجد أن هناك مجموعة من البحوث لم يطلق عليها أرسطو اسما معينا، وجاءت في الترتيب بعد البحوث التي كتبها أرسطو في الطبيعة فاختار لها أندرونيقوس اسم الميتافيزيقا وهي الكتب والبحوث التي تلي كتب الطبيعة في ترتيب المؤلفات الأرسطية، وهذا العلم يعنى بدراسة الوجود بصفة عامة وملحقاته، أي المقولات التي تعبر عن الخصائص الأساسية لهذا الوجود كالجوهر والعرض والزمان والمكان...

مما لاشك فيه أن الميتافيزيقا دائما ما أثارت تمثلات رافضة، بأنها مبحث مفارق للواقع، بعيدا عن الإنسان وتصوراته، بل وإن هناك من يجعل منها مرادفة للاواقعي والخرافي والمتعالي أو ما لا معنى له، وقد تبنت بعض الاتجاهات الفلسفية هذه التمثلات، مثل المدرسة الوضعية المنطقية، التي شبهت قضايا الميتافيزيقا بقضايا فارغة المعنى، وبما أن الميتافيزيقا هي الفلسفة الأولى بلغة أرسطو، بمعنى أنها لصيقة بالدراسات الفلسفية، فإن تلك التمثلات والاتهامات قد طالت الفلسفة في حد ذاتها، وهذا ما يحتم علينا أن نتوجه إلى ضرورة تحديد أعمق وأدق لمفهوم الميتافيزيقا عبر التحدث عن الصعوبات التي عانت منها، وتحديدها من داخل كل مرحلة فلسفية بداية من الفلسفة اليونانية مع أرسطو ومرورا بالفلسفة الوسطية (الإسلامية - المسيحية) ثم الفلسفة الحديثة وصولا إلى الفلسفة المعاصرة، لكننا في هذا الملخص سنركز فقط على المرحلة الحديثة بالضبط الميتافيزيقا عند ديكارت (يمكن للطلبة الأعزاء الرجوع إلى كتاب إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقا، مرجع ثانوي مقترح في لائحة المراجع من أجل الانفتاح على باقي المراحل). فديكارت كما سنرى في المحور الثاني قد أحدث ثورة معرفية كبيرة، عبر وضعه منهجا معرفيا سعى من خلال الوصول إلى الحقيقة المجردة التي لا يرقى إليها الشك، وقد شكل هذا المنهج جدلا كبيرا داخل الوسط المعرفي عامة والفلسفي خاصة.

لقد اتفق الجميع على أن الميتافيزيقا هي ما بعد أو ما وراء الطبيعة، لكن يبدوا أن هذا التحديد غير كافي لمعرفة ماهية الميتافيزيقا بمعناها الدقيق، كونها تحمل في طياتها وداخل براثنها معاني غامضة وكبيرة، وهذا ما يحتم علينا الغوص أكثر في هذا المعنى، للكشف عن

المعنى الأصيل والبناء الذي يحمله هذا التعريف البسيط. على أننا لا يمكن إنكار الصعوبة التي تعتري هذا المفهوم في تحديده وتعريفه، وذلك راجع إلى عاملين رئيسيين؛ أولهما: أن الفيلسوف نفسه دائما ما تتأرجح له أفكاره بين المدح تارة والقدح أو الهجاء تارة أخرى، حيث نجد العديد من الفلاسفة والمفكرين قد دفعوا الميتافيزيقا إلى أسفل السافلين عبر رفضها وقدحها والتخلي عنها، أمثال أحد فلاسفة البرغماتية الأمريكية وليام جيمس، الذي شبه الشخص الميتافيزيقي بالأعمى الذي يبحث وسط الظلام عن قطة سوداء لا وجود لها، بمعنى أن الميتافيزيقا تعنى بما لا وجود له، ترمي بالإنسان في دوامة غامضة ومظلمة، في حين نجد فلاسفة آخرين قد دفعوا الميتافيزيقا إلى أعلى العليين عبر مدحها والرفع من قيمتها، أمثال كانط الذي يصفها بالأساس الأصيل للوجود الحق والدائم للجنس البشري، بمعنى أنها أساس الوجود الحقيقي والباحث فيها باحث عن الحقيقة الأصيلة، بينما العامل الثاني فيتمثل في المشكلة الميتافيزيقية بحد ذاتها، لأنها تبدوا بأمور تتجاوز ما هو ظاهر ومحسوس، هذا ما يجعل من الميتافيزيقا صعبة الحد والتعريف.

ورغم ذلك تعتبر الميتافيزيقا العمود الفقري للفلسفة طيلة مسارها التاريخي، وأن حذفها يعني بالضرورة هدم الفلسفة من جذورها، والواقع أن هناك لبسا وغموضا واضحا في فهم الهجمات العنيفة ضد الميتافيزيقا ويمكن تجاوز هذا الأمر إذا تدبرنا النقاط التالية:

<u>أولا</u>: الهجمات لم تشمل الفلسفة المعاصرة برمتها وإنما انحصرت في العالم الانجلوسكسوني فحسب، فقد كانت هناك مناقشات ودراسات ميتافزيقية في أنحاء شتى من العالم.

<u>ثانيا</u>: ما حدث في القرن العشرين في أنجلترا وأمريكا على وجه الخصوص كان رد فعل عنيف لميتافيزيقا هيجل التي سادت في القرن 19 من ناحية، ثم الهيجلية الجديدة التي سيطرت على الفلسفة في هذين البلدين بعد ذلك من ناحية أخرى.

<u>ثالثا</u>: لم يكن الطلاق بائنا بين الميتافيزيقا والعلم وإنما هي فترة خصومة سرعان ما ذاب الجليد بعدها وعادت العلاقة بنهما قوية ومتينة.

رابعا: ليس هناك تعارض بين العلم والميتافيزيقا، فهما لا يبحثان في مجال واحد، فإذا كان العلم يبحث في موضوعات توجد في عالم الزمان، فسيبقى للميتافيزيقا موضوعات أخرى تقع في العالم المتعالي، أي العالم الأزلي، الله، خلود النفس، بداية العالم في الزمان.

هكذا يمكن القول أن الميتافيزيقا تهتم أساسا بالتمييز بين الظاهر والحقيقة، أو عالم الظواهر و عالم الشيء في ذاته وتهتم بوضع المعايير المناسبة لهذا التمييز والعلم نفسه يثير مشكلات ميتافيزيقية، فالميتافيزيقا هي الأساس والأصل الأول، لأنها أساس ومدخل سائر المباحث الفلسفية، وأنطولوجية لأنها تبحث في الوجود الشامل، و ثيولوجية لأنا من خلال الأنطولوجيا تحاول استخلاص وجود ذات إلهية، بمعنى آخر تتحدد الميتافيزيقا بكونها الأساس الأول الذي يسعى إلى بناء استخلاص حاسم لوجود ذات إلهية عبر التأمل في الموجودات، فهي علم كوني بالوجود بما هو موجود في اقتران بعلة واحدة.

هكذا ظلت الميتافيزيقا أشرف وأرقى المباحث طيلة المراحل الفلسفية، حتى جاء التيار الوضعي الذي حذف هذا اللفظ من المعجم، ورفضها كما سبق الذكر، وكذلك مع التطور المهول للعلم، أضحت الميتافيزيقا تتلاشى شيئا ما، إلا أنها لم تتلاشى وظلت قائمة سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، وحاول ثلة من الفلاسفة تجديدها، واستعمالها من أجل خدمة بعض المباحث، خصوصا مع ظهور بعض المباحث الجديدة، فرغم أن الميتافيزيقا بدأت أنطولوجية مع أرسطو بوصفها علم الوجود ولواحقه، فهذا المعنى استمر في المرحلة الوسيطية لكنه تغير في العصر الحديث وعصر التنوير وكذلك في الفلسفة المعاصرة، حيث امتد مجال الميتافيزيقا في الفلسفة الحديثة ليشم الإبيستيمولوجيا ونظرية المعرفة (ديكارت، جون لوك، هيوم، كانط).

في نفس العصر، عصر رفض/ السماح للميتافيزيقا، ظهر العديد من الفلاسفة الذين تشبتوا بها واعتبروها هي أساس كل التصورات ولا يمكن الاستغناء عنها، شئنا أم أبينا، فنجد كانط الذي اعتبرها ملكة العلوم بواسطة منهجه النقدي، حيث كان النقد الذي تمت ممارسته على المعرفة الظاهرة بوابة للدخول لعالم الميتافيزيقا، فالنقد وظيفته فحص ما يبدوا على أنه حقيقة ظاهرة بمحاولة الكشف عما وراءها وكذلك تفعل الميتافيزيقا، كذلك نجد ديكارت الذي قد وجه هو الآخر نقده لكل شيء، لدرجة الشك في كل شيء حتى في مبادئ

العلوم والأحكام القبلية التي كانت بديهيات يقينية، وهذا الفيلسوف هو الذي سنركز عليه في المحور الثاني.

- ✓ المحور الثاني: الميتافيزيقا وتأصيلها، وقفة مع التأملات الميتافيزيقية الديكارتية.

(توجيه للطلبة: ضرورة قراءة التأملات الميتافيزيقة، خاصة التأملات الثلاثة الأولى وهي موجودة في المنصة المخصصة للتعليم عن بعد.)

يعتبر ديكارت من الفلاسفة الحداثيين، الذي جاء بالمنهج وبالكوجيطو، فهو فيلسوف وعالم رياضي، ولقد لقبه بتراند راسل في كتابه تاريخ الفلسفة الغربية بأنه أب الفلسفة الحديثة، إذ تجاوزت أفكاره الأفكار السائدة في أوائل القرن السابع عشر.

ولد René Descartes رينيه ديكارت في 31 مارس عام 1596 في لاهاي في مقاطعة اللورين في فرنسا، وكان على قدرٍ كبيرٍ من الثقافة والتعليم وسعة الاطلاع. ومنذ الثامنة بدأ تحصيله العلمي في الجامعة اليسوعية، وحين أصبح عمره 22 سنة نال شهادةً في القانون، إلا أنّ أحد الأساتذة ذوي النفوذ سهّل له الالتحاق بمقرٍ تعليمي لتطبيق الرياضيات والمنطق بهدف فهم عالم الطبيعة. وأدرج هذا النهج التفكر بطبيعة الوجود والمعرفة نفسها، ومن هنا كانت أكثر عباراته شهرةً "أنا أفكر، إذا أنا موجود". وألف فيما بعد العديد من المؤلفات، أشهرها وأهمها: مؤلف "مقال في المنهج" ومؤلف "تأملات في الفلسفة الأولى"، وهاذين المؤلفين تناولوا الميتافيزيقا عند ديكارت أو الفلسفة الأولى بلغة أرسطو.

لقد شكلت الفلسفة الديكارتية منعطفا حاسما في تاريخ الفلسفة، حيث عرفها " الفلسفة شجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها الفيزياء وباقي الأغصان تتمثل في الطب والأخلاق والميكانيكا"، حيث مثلت مجاوزة للميتافيزيقا الأرسطية، ومحاولة لتجديد أفكارها، وتجاوز التناقضات التي وقعت فيها، مما جعل من الميتافيزيقا ذات منهج عقلي موضوعي، حيث نجد أن الميتافيزيقا الديكارتية تم تأصيلها المنهجي في كتابه "مقالة في المنهج"، أما منطلقاتها، أي تطبيق قواعد المنهج، فقد كان على مستوى كتابه "تأملات ميتافيزيقية" ، وما هو معلوم في هذين المؤلفين حضور الشك كمنهج، يهدف إلى تحرير العقل من الخطأ

والحسم مع المعتقدات السابقة، بمعنى أن ديكارت اعتبر أن المعرفة اليقينية تتأسس على الشك الجذري يطال كل شيء، ويهدف إلى هدم كل العقائد السابقة.

إن الفلسفة عند ديكارت تبدأ بالميتافيزيقا كما قلنا، فقد عرف الميتافيزيقا بالشجرة، جذورها الميتافيزيقا، وجذعها العلوم الطبيعة، وأغصانها باقي العلوم، بمعنى أن الميتافيزيقا حسب تعبيره هي الجذر الأول، أو الأصل الأول للفلسفة، والميتافيزيقا عنده هي أشد العلوم يقينا وهي العلم الذي ينبغي أن نستيقن من نتائجه قبل أن نستيقن من نتائج العلوم الأخرى، بصيغة أخرى إن الميتافيزيقا تهتم بالذات التي تعرف والتي تقرر الوجود أكثر مما تهتم بالموضوع الذي يمكن أن يعرف أو يكون موجودا. وقد اعتبر ديكارت أن منهج الميتافيزيقا هو عين منهج الرياضيات، وأكد على أنها أكثر العلوم يقينا.

إذا كانت الميتافيزيقا القديمة الأرسطية قائمة على دراسة الوجود، فإن الميتافيزيقا الديكارتية أضحت تدرس الإبيستمولوجيا، بمعنى أنها انتقلت من دراسة الوجود إلى دراسة المعرفة، ومن الموضوع إلى الذات، وفي هذا السياق يقول إمام عبد الفتاح إمام في كتابه "*مدخل إلى الميتافيزيقا*": "إذا كان المدرسيون قد تابعوا أرسطو في تعريفه للميتافيزيقا بأنها؛ العلم بالوجود من حيث هو وجود، فإن ديكارت لا يقبل هذا التعريف، لأن المشكلة الكبرى عنده هي أن نتبين متى لنا إثبات الوجود، وبعبارة أخرى إن الميتافيزيقا الديكارتية تهتم بالذات التي تعرف وتقرر الوجود، أكثر مما تهتم بالموضوع الذي يمكن أن يعرف أو أن يكون موجودا".

تسير الميتافيزيقا الديكارتية عبر عدة خطوات، أهمها خطوة الشك، وهي الخطوة الأولى والأساسية للتأمل الميتافيزيقي فإذا أدى بنا إلى المبادئ الأولى، وصلنا إلى اليقين الفلسفي، وفي هذا السياق يقول ديكارت "ليس بالأمر الجديد ما تبينت من أنني منذ حداثة سني قد تلقيت طائفة من الآراء الباطلة، وكنت أحسبها صحيحة، وإن ما بنيته منذ ذلك الحين على مبادئ، هذه حالها من الزعزعة والاضطراب، لا يمكن أن يكون إلا شيئا مشكوكا فيه جدا ولا يقين فيه أبدا".

إن ديكارت قد استدل بثلاثة أدلة برهانية عقلية لإثبات وجود الكائن الكامل، الدليل الأول يتحدد في قاعدة الشك الذي ينطلق منه لبلوغ اليقين، أما الدليل الثاني فهو مستمد من الدليل الأول، ويتحدد في فكرة الكمال، لأن ديكارت ليس علة لنفسه، فهو كائن ناقص لا يمكن أن يكون خالق نفسه، وفي هذا السياق يقول ديكارت: "لو كنت خالقا لنفسي، لما

شككت في أمر، أو رغبت في أمر، ولا افتقرت إلى أي من الكمالات، ذلك لأنني سأمنح نفسي حينئذ كل الكمالات" بينما الدليل الثالث فهو مستوحى من الهندسة، ويعد من أقوى هذه البراهين وأدقها، حاول ديكارت في هذا الدليل أن ينتقل من الفكر إلى الوجود، أي أنه استخلص وجود الكائن الكامل انطلاقا من فكرة الكائن الكامل ذاته

✓ ملخص كتاب التأملات الميتافزيقية (التأملات الثلاثة الأولى)

إن كتاب ديكارت *"تأملات في الفلسفة الاولى"* يعد من الأعمال الكلاسيكية الخالدة وهو ينتمي الى ميدان نظرية المعرفة. هذا الميدان يهتم بدراسة ما يمكن للإنسان ان يعرفه وما هي حدود تلك المعرفة. وكان هدف ديكارت من هذا الكتاب أن يصنع أساسا صلبا يمكن ان تقوم فوقه العلوم المختلفة. حيث لاحظ ديكارت أن كل العلوم تعتمد في جوهرها على الفلسفة. لكن الفلسفة في حد ذاتها متنازع في شأنها. وهناك فلسفات بعدد الفلاسفة. فأراد ديكارت أن يحل هذا التناقض وأن يختبر كل شيء فى معارفنا من البداية الى النهاية حتى يتأكد من سلامة كل شيء. وقد شبه ديكارت ذلك بأن تفاحة فاسدة واحدة بإمكانها افساد سلة كاملة من التفاح. وأفضل طريقة للتخلص من التفاحة الفاسدة هو اخراج كل التفاح من السلة وفحصه تفاحة تلو الأخرى. ولا نعيد أي تفاحة مرة اخرى الى السلة حتى نتيقن من سلامتها تماما.

إن كتاب التأملات هو عمل أدبى رائع. وقد صاغه ديكارت بصيغة ضمير المتكلم مما يحفز القارئ على التفاعل مع أفكار الكتاب ولا يكتفى بتلقيها بصورة سلبية. بل هو يتخيل نفسه في مكان الكاتب ويعيش تجربته ويعيش افكاره. وهذا الكتاب مكون من 6 اجزاء أو ستة تأملات، وسنركز في هذا الملخص على التأملات الثلاثة الأولى.

1-التأمل الأول: تلك الأشياء التي قد تكون موضعاً للشك.

إن طبيعة هذا الشك أنه منهجي لأن ديكارت لا يستخدمه إلا كوسيلة للوصول إلى يقين أول واضح بذاته، ولا يأخذ الشك موقفاً نهائيا له. ولا يقصد ديكارت بذلك الحكم بزيف كل شيء، أو بزيف كل ما يوضع محل الشك، بل يقصد أنه لن يقبل بأي شيء على أنه حقيقي

ما لم يخضع لامتحان الشك، الذي يستطيع به الوصول إلى شيء يقيني عن طريق برهان عقلي. وهو يذهب إلى أننا سوف نتمكن من التأكد من صحة ويقين أشياء كثيرة ومنها العلوم بعد أن نمارس خطوة الشك، وليس ذلك إلا لأننا تمكنا من تأسيسها على أسس من اليقين والوضوح العقلي.

لذلك فهو عندما يضع موضع الشك كل العلوم بما فيها الرياضية والهندسية فليس ذلك إلا بغرض تأسيسها على أسس يقينية واضحة. والحقيقة أنه يقوم بذلك بالفعل ابتداء من التأمل الرابع، حيث يثبت يقين العلم الطبيعي من منطلق أنه في العقل فكرة واضحة ومتمايزة ويقينية عن الامتداد الذي هو جوهر العالم الطبيعي.

لكن يضع ديكارت أشياءً أخرى كثيرة محل الشك وتسقط في هذا الاختبار وبالتالي يستبعدها تماماً لأنها لم تصل إلى درجة اليقين والوضوح والتمايز الذي يبتغيه. ومن هذه الأشياء كل ما تعلمناه سواء من الحواس أو من خلالها، أي أنه يرفض كل ما تأتى به الحواس من إدراكات ويرفض الإدراك الحسي نفسه كأداة معرفية وهذا يتضمن كل شيء نعرفه عن العالم الخارجي وكذلك عن أنفسنا باعتبارنا أجساداً. وهو يرفض شهادة الحواس لأنها دائماً ما تخطئ، ودائماً ما تكون الحواس عرضة للأوهام أو الاعتقادات الخاطئة، وإذا ثبت أن الحواس لم تكن محل ثقة في أحيان فكيف لنا أن نثق بها في كل الأحيان؟ وهناك سبب آخر قدمه ديكارت لعدم الثقة في الحواس، وهو أنه لو لم نكتشف أننا ننخدع بالحواس ونسلم بهذا فما أدرانا أننا لا نحلم؟ ذلك لأن المرء في الحلم يشاهد أشياء كأنه يراها على الحقيقة في حين أنها ليست كذلك، وبالتالي فمن الممكن أن يكون كل ما نراه ونحس به حلم كبير والحالم غالباً ما لا يعلم أنه يحلم وبالتالي فمن الممكن أن نكون في حلم ونحن لا نعلم ذلك.

بعد ذلك تناول ديكارت حقائق الحساب والهندسة وذهب إلى أننا يجب أن ننحيها جانباً على الرغم مما هو فيها من وضوح وتمايز، حتى أن الحقيقة القائلة أن اثنين زائد ثلاثة تساوي خمسة وأن المربع هو ما له أربع أضلاع ليست محمية من الشك، فمن الممكن أن يكون هناك شيطان ماكر هو الذي أوحى لي بهذه الأشياء وأوهمني أنها حقائق وهي ليست كذلك، وينتهي ديكارت إلى القول بأنه "ليس هناك أي شيء كنت أعتقده في السابق أنه حقيقي لا يمكن أن أضعه موضع الشك، وذلك بناء على أسباب قوية ومعتبرة" والحقيقة أن ديكارت الذي شك في حقائق الحساب و الهندسة في التأمل الأول على أساس افتراض

الشيطان الماكر لن يعود إلى إثباتهما إلا في التأمل الرابع عندما يثبت أن الإله العادل لن يتركه يخضع لسلطة هذا الشيطان ولن يجعله ينخدع ويثق في أشياء باطلة وذلك بعد أن يثبت وجود الإله في التأمل الثالث.

2-التأمل الثاني: طبيعة النفس، وأنها أسهل معرفة مقارنة بالجسد.

بدأ ديكارت في التأمل الثاني من النقطة التي انتهى عندها في التأمل الأول، قائلاً: "سأستمر بتنحية كل ما فيه قليل من الشك.. حتى أصل إلى شيء يقيني" وذهب ديكارت إلى أنه حتى ولو كان افتراض وجود شيطان ماكر صحيحاً، وحتى لو كان هذا الشيطان الماكر يخدعه بأن يصور له وجود عالم لا وجود له، فإن هذا الشيطان الماكر لا يمكن أن يخدعه في وجوده ذاته، فلا يمكن أن يصور له أنه موجود في حين أنه ليس موجوداً. وبذلك توصل ديكارت إلى أول يقين وهو وجود الذات، ويقول أنه يشعر بوجوده وبهويته وبالتالي فهو موجود. واستخدم ديكارت حجة شبيهة في «*مبادئ الفلسفة*» إذ قال: "لا يمكننا الشك في وجودها أثناء عملية الشك"، ذلك لأن الكائن الذي يشك يجب أن يكون موجوداً في البداية، "ذلك لأن من التناقض الاعتقاد في أن الذي يفكر لا يوجد أثناء التفكير". فالتفكير في حد ذاته دليل على وجود الذات التي تفكر، وهذا ما يعرف بالكوجيتو Cogito أنا أفكر، إذن أنا موجود ,Cogito ergo sum

الحقيقة أن ديكارت انطلق إلى تأكيد هذه النتيجة على أساس العلاقة التقليدية بين الجوهر والأحوال أو الموضوع والمحمول، فحسب هذه العلاقة التقليدية لا يمكن أن تكون هناك أحوال دون جوهر تحمل عليه، ولا يمكن أن يكون هناك محمول، بالمعنى المنطقي بدون موضوع، ولا يمكن أن يكون هناك فعل دون قائم بهذا الفعل. والتفكير فعل يجب أن يكون له فاعل أو محل يحدث فيه أو شيء يقوم به وهو الذات المفكرة. وهكذا نرى أن الثورة الفلسفية التي أتى بها ديكارت تكمن خلفها بعض الاتجاهات التقليدية القديمة في الفلسفة.

وتساءل ديكارت بعد ذلك عن طبيعة وجود هذه الذات التي اكتشف وجودها اليقيني والواضح، ويذهب إلى أنه يدرك نفسه باعتباره جسماً، أي ممتلكاً لإحساسات معينة ورغبات ومشاعر. وعلى الرغم من أنه يمكن الشك في الأشياء الحسية، إذ يمكن أن تكون مجرد أوهام، إلا أنه لا يمكن الشك في أن المرء حاصل على وعي بالإحساسات، وهذا الوعي في حد ذاته موجود وحاضر ولا يمكن أن يكون وهماً. وتوصل ديكارت من ذلك إلى أن الوعي بالجسد

نفسه يأتي من الفكر، ذلك لأن الإحساس والرغبة والمشاعر كلها عناصر فكرية يدركها المرء بفهمه وعقله، وينتهي ديكارت إلى القول بأن الذات توجد باعتبارها شيئا **Res cogitans** أي فكر خالص يعد هو نفسه أساس الوعي بالحالات الجسدية.

وقد وقف ديكارت طويلاً على مفهوم آخر مرتبط بالجسد، وبكل الأشياء الجسمية، وتساءل: هل أمتلك وعياً بذاتي بفضل امتلاكي لجسد ممتد، أي ذي أبعاد تشغل حيزاً من الفراغ؟ ويجيب بالنفي، ذلك لأن إدراك الشئ الممتد، بما فيه الجسم الإنساني لا يعتمد على الحواس بل على الفكر. ويضرب مثالاً على ذلك بقطعة من الشمع. فهذه القطعة لها شكل معين ولون وملمس، وعندما تتعرض للحرارة تذوب ويتغير شكلها وملمسها ولونها، وليس معنى هذا أنها اختفت أو كفت عن الوجود بل يظل الفكر يعرف أنها باقية، وذلك من كونها لا تزال شيئاً ممتداً. ومعنى هذا أنه لا الشكل أو اللون أو الملمس قادر على إبقاء هوية شيء ثابتة في الفكر، والامتداد وحده هو القادر على ذلك. هذا الامتداد ليس شيئاً تتلقاه الحواس مثل اللون والملمس والرائحة بل هو شيء يدرك بالفكر وحده. ومعنى هذا أن الفكر لا يدرك ماهية المادة من الإحساسات التي يتلقاها منها بل من فكرة الامتداد التي يدركها الفكر مباشرة على أنها ماهية كل ما هو جسمي بما فيه الجسم الإنساني.

3 -التأمل الثالث: وجود الله

اعتقد ديكارت أن الله يشبه العقل من حيث أن الله والعقل يفكران ولكن ليس لهما وجود مادي أو جسمي، إلا أن الله يختلف عن العقل بأنه غير محدود، وأنه لا يعتمد في وجوده على خالق آخر، ويقول: "إنني أدرك بجلاء ووضوح وجود إله قدير وخير لدرجة لا حدود لها."

انتقل ديكارت في التأمل الثالث إلى تناول وجود الإله وطبيعته، ويثبت وجوده بدليلين، وفي التأمل الخامس يستخدم دليلاً ثالثاً. وجدير بالذكر أن الذي جعل ديكارت ينتقل من إثبات وجود الذات المفكرة إلى البحث عن يقين آخر وهو الإله ويشرع في إثبات وجوده هو أنه استمر في ممارسة شكه، ذلك لأنه رأى أن مجرد إثبات وجود الذات لا يكفي كي يصل إلى يقين مطلق حول باقي أفكاره وحول العالم، حتى أنه لا يزال يشك في التأمل الثالث في الحقائق الحسابية والرياضية ويفترض أن هناك من يخدعه حولها وأن هذا المخادع هو الذي جعله

يعتقد في صدقها في حين أنها ليست كذلك. وتناول ديكارت يقينه الأول الذي وصل إليه وهو وجود الذات وذهب إلى أن هذا الوجود لا يكفي في حد ذاته لإثبات حقائق العالم المختلفة.

لقد افترض أن الذات تحصل على يقينها من خلال نور فطري في النفس الإنسانية لا يرجع إلى العالم الخارجي. لكنه يعود ليشك في هذا النور الفطري ذاته لأنه لا يذكر عنه سوى ما تلقاه من حقائق في العالم الخارجي، وبذلك يكون النور الفطري مجرد عامل مساعد يظل معتمداً على ما تتلقاه الذات من العالم الخارجي. وهذا الاعتماد للنور الفطري على أشياء العالم لا يجعله عند ديكارت يقيناً مستقلاً بالذات، بل يمكن أن يكون هو نفسه عرضة للشك، لأن النور الفطري يقتصر دوره على ما تتلقاه الذات من العالم، وبذلك فهو ليس فاعلاً بل منفعلاً، ليس إيجابياً بل سلبي. والنور الفطري ليس سوى تأكيد الذات على حقائق العالم بناء على وضوح وتميز أفكارنا عنه. هذا الوضوح والتمييز في حد ذاته عرضة للشك لأنه يمكن أن ينتهي في النهاية إلى مجرد خداع أو إلى شيطان ديكارت الذي لا يكف عن افتراض وجوده دائماً في مؤلفاته. وفي مواجهة عدم كفاية اليقين الأول وهو وجود الذات.

وبسبب أن هذه الذات يمكن أن تكون منخدعة، شرع ديكارت في البحث عن أساس ثان لليقين يستطيع به تأسيس يقينه بحقائق العالم. وعندما يبحث في فكره عن أفكار يدركها في وضوح وتميز يجد أنه يستطيع التفكير في إله كامل. فبعد أن ينحي العالم كله ويستبعده من تفكيره هو والأفكار المتعلقة به وما يؤكده من نور فطري الذي هو في حد ذاته محل للشك، يتناول الفكرة الثانية التي تطغي على تفكيره بعد فكرة الذات المفكرة مباشرة وهي فكرة الإله .ويجعل ديكارت فكرة الإله هي الفكرة الوحيدة القادرة على تخليصه من شكه، لأنه بدون هذا الإله لن يستطيع أن يكون على يقين من أي شيء، ولن يستطيع أن يتخلص من فكرة الشيطان الماكر الذي يخدعه دائماً، ويقول في ذلك: «يجب أن أبحث فيما إذا كان هناك إله بمجرد ما أن تأتي الفرصة لذلك، وإذا اكتشف أن هناك إله، يجب عليَّ أيضاً أن أبحث فيما إذا كان مخادعاً»، ذلك لأن الإله إذا كان مخادعاً فلن يكون هو الإله الحقيقي بل سيصبح الشيطان الماكر بعينه، «ذلك لأنه بدون معرفة بهاتين الحقيقتين، أي وجود الإله وأنه ليس مخادعاً، فلا يمكن أن أصبح على يقين من أي شيء»، عدا كونه وجوداً مفكراً وحسب.

والملاحظ أن ديكارت توصل إلى وجود الذات المفكرة لا بأدلة وبراهين عقلية مثل التي يستخدمها في إثبات وجود الله، بل بالحدس والبصيرة. ذلك لأن السلسلة التي ينتقل فيها من الشك إلى اليقين بوجوده باعتباره كائناً مفكراً، والتي يقول فيها: «أنا أشك إذن أنا أفكر، إذن أنا موجود» ليست ببرهان عقلي بل هي في حقيقتها برهان حدسي، يقوم على البصيرة والنور الفطري. وعندما يأتي ديكارت لتناول فكرة الإله كفكرة في الذهن وحسب، وكي يوضح أنه ليس مجرد فكرة وأنه يتمتع بوجود حقيقي يشرع في تقديم أدلة عقلية وبراهين منطقية على وجوده.

ومعنى هذا أن ديكارت قدم أدلة وبراهين على ما توصل إليه عن طريق حدس باطني وبصيرة داخلية، ذلك لأنه يبحث في ذاته عن فكرة أخرى غير فكرة الذات المفكرة ويجد فكرة الإله، وهذا هو طريق الحدس، الذي يثبته بعد ذلك عقلياً في صورة أدلة. إن كثيراً ممن يعرض لفلسفة ديكارت ينتقل مباشرة من إثباته لوجود الذات المفكرة إلى أدلته على وجود الإله، متناسياً الكيفية التي ظهرت بها فكرة الإله لديه. فهو لم يتوصل إلى هذه الفكرة بأدلة عقلية بل بحدس باطني وبصيرة داخلية، وهذه هي النقطة التي لم يركز عليها أغلب من تناولوا فلسفته من مؤرخي الفلسفة. فكرة الإله ذاتها يعرفها ديكارت بحدس وبصيرة داخلية، أما وجوده فيعرفه أو يثبته بأدلة وبراهين عقلية. وكونه يعرف فكرة الإله بحدس باطني يجعل فلسفته مشابه لفلسفة القديس أوغسطين التي تعتمد على نفس الوسيلة وهي الحدس والبصيرة الداخلية لاكتشاف فكرة الإله داخل النفس. ومرة أخرى نرى كيف أن فلسفة ديكارت ليست جديدة تماماً بل تنطوي على عناصر تقليدية سبق ظهورها في فلسفات العصور الوسطى.

- ✓ خلاصة عامة

هكذا يمكن أن نخلص انطلاقا من الرحلة التي مررنا بها بخصوص تأصيل الميتافيزيقا وتحديدها عند ديكارت، أن الميتافيزيقا الديكارتية شكلت ثورة جذرية في مضمار النظر الميتافيزيقي، حيث استطاع ديكارت التخلص من الإطار الأرسطي المتداول للميتافيزيقا، مما جعل الفيلسوف هيغل يطلق عليه "بطل الأزمنة الحديثة"، وقد تمثلت هذه الجرأة الديكارتية في جعل الشك أساسا لكل ميتافيزيقا ممكنة، وعلى هذا يظهر أن ديكارت قد اعتمد على العقل، وغيب الحواس، وهذا ما شكل نوعا من النقص في ميتافيزيقا ديكارت،

فظهر بعده فلاسفة النقد حاولوا التوفيق بين ما هو عقلي وإحساسي عن طريق الإيمان، ولعل الفيلسوف الذي نجح في ذلك هو كانط.